الدكتور صروف مؤرخا

لما كان علم التاريخ يرتكز على دعائم كثيرة اهمها علم الآثار القديمة وعلم النقود وعلم الخطوط وعلم أصول الشعوب وانسابها وعلم وصف المعيشة قبل التاريخ وعلم الاشتقاق اللغوي واشباهها وجب ان نرسل لمحة عامة في مباحث المقتطف التي اهتم بنشرها المرحوم العلامة الدكتور يعقوب صرُّوف احد منشئي هذه المجلة المحبوبة ولاسيما ما كان من تحريره وانشائه . ومن هذه المقدمات نستنتج الحقيقة فيما اذا كان مؤرخاً — فلنشرع بهذه الاستقراءات

(اولاً) من هو المؤرخ؟ هذا سؤال اجوبتهُ كثيرة ولكننا نقتصر منها على ما يأتي (١) العلوم التي يحيط بها (٢) امانتهُ في نقل التاريخ وتجردهُ لهُ (٣) ذكاتهُ وبعد نظره فيهِ (٤) اسلوبهُ الكتابي (٥) تفننهُ في تنسيقهِ وتبويبهِ

اذا نظرنا الى المقتطف في أوائل عهدهِ واستقرأنا مباحثهُ التاريخية الى آخر ايام المؤلف في خدمتهِ رأيناهُ يستقريء الحفريات الاثرية ويصف عادياتها ويقتبس اخبارها من مصادرها الاصلية بصورها الرائعة حتى انك تستخرج من المقتطف كتباً في علم الآثار ولاسيما آثار مصر التي كان يطوف بنفسهِ ليشاهدها ويكتب عنها كما مرَّ في ترجمتهِ المطولة في (مجلتنا الآثار) في المجلد الرابع منها[1] ولم تكن ابحاثهُ في النقود القديمة وتواريخها وانواعها وصورها وما يمتُّ منها حديثاً وما يتعلق بها[2] باقل تقصياً في التنقيب والوصف وضبطاً وتحريراً . وكذلك علم الخطوط باللغات المختلفة ولاسيما لغتنا العربية[3] فانهُ كتب فيهِ مقالات جليلة الشأن

وهكذا الحال في علم اصول الشعوب وفروعها وانسابها وتواريخها واخلاقها وعاداتها ولغاتها[4] من قديمة وحديثة ومدنية وهمجية وشرقية وغربية معتمداً فيها على اسدّ الآراء واحدث العلوم ناظراً في اقوال من تقدمهِ وممحصاً كثيراً منها ومنتقداً ما شذَّ منها عن القاعدة الصحيحة ومترجماً مشاهيرها

(١) المقتطف ٤ : ١٩٣ و٣١٨ و٨ : ٢٦٥ و٩ : ٨٦٥ و٤٥ : ٢٨ و٤٦ : ٣٤ :
(٢) راجع مجلة المقتطف ٤ : ٢١٤ و٨ : ٨٩ و٥٩ : ٥٢٩ الخ
(٣) المقتطف ٤ : ١٨٥ و٦ : ٣٣ الخ
(٤) المقتطف ٤ : ٨٩ و٦ : ١٩٥ و٨ : ٣٣ و٤٥ : ٣٢١ و٤٧ : ١٦٣

اما وصف شؤون الشعوب قبل التاريخ [١] ففيه مقالات جيلة المقاصد نبيلة الاغراض جزيلة الفوائد جليلة الشؤون وكذلك في اصول الانسان وتحقيق ما ذهب اليه النسابون [٢] والمؤرخون فتراهُ يزيّف الآراء الواهية ويدعم اقوالهُ باصح الابحاث وامثل التنقيبات حتى يكشف القناع عن الحقائق الوهمية ويميز صحيحها من فاسدها وراجحها من مرجوحها

ولكنهُ مع كل تفرعات مباحثهِ وتوسعهِ في فنون الصحافة ، التي خُصَّت بها المجلات الكبيرة ووقوفهِ على ما يكتبهُ ارباب المجلات الاجنبية الكبرى ومكاتبوها تدابق لنفسهِ حصة وافية من تحليل الالفاظ وفقه اللغة والاوضاع وارجاع الكلمات الى نصابها واصابة الرأي بمعرفة مظانها [٣] . فابدع في ما انشأ او ما اختار من الكتابات والمعرَّبات الى غير ذلك مما لا محل لتفصيلهِ الآن فنترك الحكم فيهِ لمطالعي المقتطف وكلهم من العلماء الاعلام والادباء العظام

ولا عجب اذا اجاد صرُّوف في هذه المباحث وقد تضلَّع من العلوم على اختلافها واتقن اهم اللغات القديمة والعصرية ووقف على متفرق المؤلفات العربية والاعجمية فمحَّص وحقق ونقَّب وراجع وبحث وزيَّف او وافق الى ان انجلت لهُ الحقائق ، المعروضة امام نظرهِ النقَّاد وجلَدهِ العظيم وبحثهِ الكثير وتتبعهِ الدائم . فان كبار المجلات والصحف والمؤلفات التي تلفظها لهوات المطابع الاوربية والاميركية والشرقية كانت تلقى بين يديهِ يقلّب صفحاتها ببصيرة وتدقيق ويزن اقوالها بميزان الحكمة والتحقيق ويقتطف منها (لمقتطفهِ) اطيب ثمارها فلا يخالف بين ما اختارهُ وما كتبهُ بقلمهِ فيوفق بين الذوقين الشرقي والغربي ويهتم بالنقد التاريخي [٤] الذي هو اليوم دعامة العلم الصحيح المسمى (بفلسفة التاريخ)

فهل كان الدكتور صروف بعد هذا مؤرخاً ؟

لا نشك ان صروفاً كان مؤرخاً محققاً عارفاً باصول هذا الفن مستقرياً لفروعهِ

---

(١) المقتطف ٨ : ٤٢٢ و٤٤ : ٣٤٤

(٢) المقتطف ٤٤ : ٤٧١ و٣٥ : ١٢٢١ و٦٥٨

(٣) راجع المقتطف ٣٥ : ٧٠٣ و٧٠٤ و٣٨ : ٢٣٥ و٤٤٢ و٤٦ : ١ الخ

(٤) راجع المقتطف ٥٣ : ٦٩٢ و٦٩٩ و٩٠٧ و١٠٧٨ و٣٨ : ٩٠ و٢٣٥ و٤٤٢ و٤٤ : ٤٠١ و٤٩٦ : ١٨٧ و٥٩ : ٢٩٩ و٣٠ : ٩٢٧ و١٠٢٥ و٣٣ : ٨٦٢ و٣٤ : ١٩٠ و٦٠٢

واليك الآن بعض الادلة التي ندعم بها قولنا . قال في المجلد الثلاثين من (المقتطف) في كلامه عن (تاريخ التمدن) لزميلنا المرحوم جرجي بك زيدان المؤرخ المعروف في الصفحة ١٠٢٧ ما نصهُ :

« والكتاب على هذا النسق من جمع زبدة القضايا التاريخية وتبويبها حتى صار بها تاريخ العرب معقولاً على نوع ما . ولكن لا يزال فيه كثير مما لا يكاد يصدقهُ عاقل . وحبذا لو زادنا المؤلف من المقابلة بين ما فيه وما في تواريخ الامم المعاصرة للعرب ونبه على كل ما لا يحتمل وقوعهُ منهُ فان التحقيق والتمحيص لازمان كالجمع والتبويب ان لم يكونا ألزم منهما ولاسيما في تاريخ لصفهُ منقول عن ألسنة الرواة » انتهى — وفي كلامه هذا ما يدلُّ على كلفهِ بفلسفة التاريخ التي تردُّ الاشياء الى المعقولات والممكنات

وفي (المجلد الرابع والثلاثين) الصفحة ١٩٠ — نقد كتاب (مشهد العيان) واشار الى انهُ قد وقف على اصلهِ للعلامة الدكتور مخائيل مشاقة الشهير فوجد طابعيه قد تصرفوا به تصرفاً مخلاً لانهم ذكروا اشياء لا اهمية لها وحذفوا اشياء مهمة

وهو قول سديد يدل على مبلغ تقصيهِ في البحث وتحقيقهِ وقرظ في هذا المجلد في الصفحة ٦٠٢ كتاب (معجم الادباء) لياقوت الرومي (الجزء الثاني) واقترح وضع فهرس لترتيب اسماء الاعلام بحسب شهرتها كالميداني في حرف الميم والجوهري في الحيم وهو اسلوب عصري يسهل البحث على الطالب

ومن ادق ابحاثهِ التاريخية التعليل عن تسمية (النحو) بمقالة شائقة في الصفحة ٢٣٥ ومجلد ٣٨. وان يحيى تصحيف يوحنا واستشهد بكلامهِ بعض العلماء منهم المرحوم العلامة الاب لويس شيخو اليسوعي في مجلة (المشرق) ١٦ : ٥٤

ولا بأس من ايراد كلامهِ الذي نقلهُ في المقتطف (٥٩ : ٢٩٩) سنة ١٩٢١ جواب سؤال — فقال ما خلاصتهُ :

« فاثبتنا ببحث بضع دقائق حقيقتين جديدتين (الاولى) ان (يوحنا) الفراماطيقي هو غير يوحنا المؤرخ اسقف (نحو) ولو خلط بينهما ابن النديم وغيرهُ من الكتاب الذين سبقوهُ والذين لحقوهُ حتى كتاب الافرنج

« و (الثانية ان كلمة (نحو) او (نحو) هي اسم بلد في مديرية المنوفية في القطر المصري كان يوحنا المؤرخ اسقفاً عليها . وان العرب الذين سموا علم قواعد اللغة (نحواً) سموهُ كذلك ظناً منهم ان الرجلين رجل واحد . وان اللقب الثاني مرادف معنىً

- للّقب الاول تحريف غراماريا Grammaria اللاتينية واليونانية بمعنى (كتب) (انتهى)

وهذا برهان آخر على عنايته باشتقاق الالفاظ وصحة توجيهها اللغوي المعقول

وعند وصفه آثار (فلسطين وسورية) في المجلد الثاني والستين والصفحة ٢٥ ذكر ما امرّ عليه اللقب الانري المرحوم ادمون دوربغلوسنة ١٨٧١ عن محلٍّ توجد فيه آثار مهمة بين صور وصيدا لانهُ اكتشفها وسدَّ مغارتها لتحفظ في البلاد (المقتطف ٦٢ : ٢٧)

ومما ينبيء بركته للتاريخ واللغة وموافقتهما ايضاً قولهُ في جواب سؤال في (المقتطف ٦٤ : ٤٧٣) عن اصل لفظة مصر الافرنجية والعربية وهو :

« الكلمة الافرنجية مأخوذة من اليونانية اجيبتوس Aigyptos والمظنون ان الكلمة اليونانية محرفة عن كلمة مصرية تلفظ (هكبتاح) اي مدينة بتاح وهي مدينة منف . والكلمة (مصر) العربية من كلمة (مَزَر) العبرانية ومعناها المسوَّر » اهـ

ومن هذا القبيل رواياتهُ التاريخية وهي (رواية فتاة مصر) وصف فيها تاريخ المجتمع المصري في مطلع القرن العشرين بعاداته وازيائه واحواله الاجتماعية والادبية والمالية طبعت ثلاث مرار. و(رواية امير لبنان) في وصف لبنان في العقد السادس من القرن الماضي استرسل فيها الى ذكر ثورة سنة الستين الاهلية ومطامع الدول السياسية فيه و(رواية فتاة الفيوم) وهي رواية عصرية تصف حالة مصر الاجتماعية والاقتصادية ومنزلتها التاريخية وآثارها النفيسة بقالب روائي

اما كتاب (سرّ النجاح) لصموئيل صميلز الانكليزي ففي تعريبه وتسميته واضافة اشياء مهمة عن مشاهير العرب اليه براهين دامغة على ولعه بالتاريخ واحتفائه بتراجم المشاهير المهمة. وهكذا تجد في ما جمعهُ من المقتطف اخيراً في كتابي (اعلام المقتطف) و(الرواد) ما يحلّي جيد التاريخ بعقود الفوائد الصحيحة وكثيراً ما كان يراجع لمقالاته المعربة اقوال العرب القدماء او المحدثين فيستشهد بها ويضمها في مظانها. ويختار الرحلات المهمة العربية والاجنبية فيفيها حقها ولا يقصّر في نقدها وتذييلها بما يرفع الابهام او ينفي الاوهام

هذه لمعة مختصرة سئلتُ وضعها في هذا الموضوع المتسع الجوانب الكثير الشعبات وهي نُحَد من قطر ونقطة من بحر تجدّد لنا ذكرى الاسف على فقيد العلم والفضل المرحوم الدكتور صروف اثابهُ الله وحفظ اسرتهُ الكريمة خير خلف لخير سلف

زحلة (لبنان) عيسى اسكندر المعلوف
صاحب مجلة (الآثار)

المرحوم نور الدين بك مصطفى

امام الصفحة ١٩١

مقتطف اكتوبر ١٩٢٨